الحشائشي ورحلته في ليبيا

نقولا زيادة

مجلة العربي – العدد 168

تاريخ النشر: 1/ نوفمبر، 1972م

رئيس التحرير: أحمد زكي

سنوات الإصدار:1958 إلى .....

نوعية الإصدار: شهرية

بلد الإصدار: الكويت

الحشائشي

ورحلته في ليبيا

بقلم : نقولا زيادة

ولد محمد بن عثمان الحشائشي فى مدينة تونس فى ٢٦ رمضان المبارك سنة ١٢٧١ للهجرة الموافق لـ ١٢حزيران (يونيو) سنة ١٨٥٥ . هذا هو المرجح فى مكان ولادته وان كان صاحب علماء بنزرت يجعل هذه المدينة التونسية مسقط راسه . وكان ابوه عثمان من شيوخ جامع الزيتونة المشهور . وقد كان من الطبيعي ان يعنى الشيخ عثمان بابنه فييسر له حفظ القرآن الكريم أولا ثم يرى ان ينخرط فى طلاب الزيتونة .

واذا نحن تذكرنا ان تونس كانت قد اخذت ، منذ سنة ١٨٤٠ للميلاد ، في الاتصال بالفكر الاوروبى عن طريق المكتب العسكرى الذى انشاه احمد باى في باردو ، وعن طريق نشر عهد الامان سنة ١٨٥٧ وعن طريق المدرسة الصادقية التي انشئت سنة ١٨٧٦ – ادركت الجو الذى قضى فيه محمد شبابه . وكان بين اساتذته جماعة من رجال الاصلاح في مقدمتهم سالم بو حاجب ، ومحمود بن الخوجة ، ومحمد بيرم وعمر بن الشيخ ، واحمد الورتتاني . واذن فقد كانت الفترة التي قضاها محمد بن عثمان في جامع الزيتونة فترة غنية بالحياة الفكرية . فالى جانب نواحي الثقافة الاسلامية العربية التقليدية كان ثمة مجال للتوصل الى الآراء الجديدة . وقد كان محمد بن عثمان في العقد الثالث من عمره لما استولت فرنسة على تونس . « ورغم حوالك الوضع السياسي، وتسلط السيطرة الاستعمارية ، كانت حلقات الدراسة الزيتونية كوّات ، ومنافذ ينبثق منها نور المعرفة ، ويدوي في جنباتها صدى التفكير الاسلامي (المصراتي) .

وسار محمد على نهج ابيه ، بعد ان نال شهادة التطويع من الزيتونة ، فعمل في التدريس . ولكنه بالاضافة الى ذلك عالج نواحي الادب . وقد اخرج علي مصطفى المصراتي ان الحشائشي كان من جيل الادباء المرحين ذوى المزاج الدعابي ، والفكاهة الطريفة ، وانه كان يكتب شعرا ونثرا في الصحف المحلية . وقد ذكر له ستة كتب هي « جلاء الكرْب عن طرابلس الغرْب » (وهي هذه الرحلة التي نتحدث عنها هنا) و « رحلة الشتاء » (الى بعض اصقاع تونس) ووصف معرض باريس الذى زاره سنة ١٩٠٠ ، وكتاب في العادات والتقاليد (وهو لا يزال مخطوطا) وكتاب الرحلة الصحراوية (؟) وديوان شعر .

وقد توفي المؤلف في ٣ ذى الحجة الحرام سنة ١٣٣٠ للهجرة (١٩١٢ م) .

محتويات الكتاب

والكتاب الذى بين ايدينا لـه اسمان اولهما « جلاء الكرب عن طرابلس الفـرب » والثاني «النفحات المسكية في اخبار المملكة الطرابلسية». وكثيرا ما كان القدامى يتخذون لمؤلفاتهم اسمين للمؤلف الواحد . وكان محمد بن عثمان الحشائشي كثير التقليد للقدامى .

وقد قام الحشائشي برحلته الى ليبيا سنة

١٣١٣ للهجرة (١٨٩٥ للميلاد) . ويعتقد الاستاذ المصراتي ان رحلته لم تتجاوز العام الواحد زمنا .

فاذا اخذنا هذه الرحلة وجدنا انها تحتوى على المواضيع التالية .

١ ـ تاريخ لطرابلس من الفتح الاسلامي الى ايام المؤلف (ص ٣٢ ـ ٦٦) اخذه عن المؤرخين : مثل ابن خلدون ، وابن دينار ، او عن الجغرافيين : مثل الادريسي ، او عن رحالين سابقين : مثل العبدرى (القرن السابع) والتجاني (القرن مطلع القرن الثامن) او العياشي (القرن الحادى عشر) او الناصرى (القرن الثاني عشر) او محمد بيرم (القرن الثالث عشر) . والحشائشي ، على طريقة القدامى ، يذكر اما المؤلف او الكتاب لكن قلما يجمع بين الاثنين ، ولا يعطينا ، بطبيعة الحال ، اشارة للصفحة او ما الى ذلك . وقد حقق المصراتي اسماء المؤلفين ، واسماء الكتب ونسب الثانية الى الاولى ، وبذلك يسر للمطلع السبيل للوصول الى النبع ، وان لم يذكر الصفحات الا قليلا .

٢ ـ ثمة اشارة الى مسراطة وتاريخها (ص ١٠٤ ـ ١٠٧) منقولة عن ابن ذروق .

٣ ـ لمناسبة تحدثه عن السنوسية تعرض للطرق الصوفية الرئيسية في ليبيا (السنوسية ١٤٣ ـ ١٨٥) والسلامية ص ١٨٦ والمدنية ص ١٨٧) .

٤ ـ وصف لمدن ونواح ليبية كثيرة (سنشير الى هذا ثانية) .

٥ ـ في صفحات ٢١٢ ـ ٢٢٣ يضع بين ايدينا ملاحظات عن الحرب بين ايطالية وتركية . وهذا كان اضافة منه فيما بعد . ذلك بأن كتاب الحشائشي اى رحلته كان قد وضع قبل ذلك . ولعلّ المؤلف ظل يعيد النظر في بعض اجزائه اذ كان محتفظا به مخطوطا . فلما وقعت الحرب (سنة ١٩١١) وقبل ان ينتقل الى رحمة الله (١٩١٢) دون ملاحظاته .

واضاف الى هذه الاخبار التي دونها حديثا صحفيا ادلى بهم ادهم بك ، وهو احد الضباط الاتراك في ليبيا في اثناء الحملة الايطالية على تلك الديار ، اى قبل عقد الصلح بين تركية وايطالية . وهذا الحديث ، على ما يقول الحشائشي ، نقله عن جريدة الزهرة (التونسية) التي نقلته عن جريدة جون تورك (اى تركية الفتاة) الصادرة بتاريخ ١٩١٢/٤/١١ .

٦ ـ في خاتمة الكتاب قصيدة طويلة (ص ٢٣١ ـ ٢٣٥) هى على حد قول الحشائشي « ولنختم هذا الكتاب بما ستكون له منزلة عالية عند ذوى الالباب الا وهى قصيدة فلسفية « توحيدية . اصولية . حربية . حماسية . كشفت عن طبيعة الدهر والزمان واظهرت ما كان مركوزا في طبيعة بني الانسان » .

٧ ـ ويورد الحشائشي في كتابه شعرا له كما يستشهد بشعر الآخرين .

رحلة الحشائشي في ليبيا

تنقل الحشائشي في انحاء ليبيا فزار اكثر اجزائها : طرابلس وجهاتها وبنغازى والجبل الاخضر والجنوب وفزان وما اليها . ومعنى هذا انه عرف الساحل منها والجبل والصحراء والواحات . ومع ان الحشائشي دون شيئا من التاريخ السابق لاجزاء ليبيا ، فليس في هذا الذى جاءنا به جديد . بل هو ، بالاضافة الى اقتضابه ، قد تكون الرواية فيه ضعيفة . وهو يعتذر انه لم يعثر على كتب في تاريخ ليبيا . وهذا معناه ان الرجل لم يعرف عن مصادر التاريخ الليبي ما يكفي . وعلى كل فان الرجل يجب ان لا يحاسب على ذلك . اذ ان واقع الامر هو ان ما دونه الحشائشي عن ليبيا نتيجة لمشاهداته الشخصية هو ذاته اصبح مصدرا هاما لنواح من التاريخ الليبي في تلك الفترة القصيرة . وهنا تكمن قيمة الرحلة . لكن بالاضافة الى هذا التقرير العام ، فاننا عندما نحلل الرحلة ذاتها بالنسبة الى ليبيا، نجد فيها امورا خاصة . ولنجمل هذه فيما يلي :

١ ـ كان الحشائشي يتنقل في ليبيا للاطلاع على احوالها وحبا في الرحلة بالذات . فلم تكن ليبيا ، بالنسبة له، على طريق الحج او العلم او التجارة. والذين اجتازوا ليبيا حجاجا او طالبي علم ـ مثل ابن بطوطة او العياشي او ابن ناصر ـ اضطروا ، بحكم خط السير المألوف ، ان يتوقفوا في اماكن معينة هي محطات للقوافل . ومن هنا كانت اخبارهم عن تلك الاماكن ، واوصافهم لها ـ على ما فيها من الفائدة ـ مقصورة عليها . فان اوردوا شيئا عن مكان آخر كان عن طريق الرواية . لكن الحشائشي تنقل سائحا رحالة ليتعرف على الاماكن ويعرفها .

٢ ـ عني الحشائشي بوصف الاماكن ابنية

ومساجد واسوارا حيث كانت قائمة (ص ٦٨ ، ٦٩ ، ١٩٤ ـ ١٩٥ مثلا) .

٣ ـ اهتم الرجل بالناس ـ وما اكثر ما تجاهلهم الرحالون . مثل ما ذكره عن قاضي مرزق ٨١ ـ ٨٢ ، ونساء تلك المدينة ٨٤ ، واخلاق الطوارق ١٢٠ ، ١٣٨) .

٤ ـ اهتم بالفلاحة وبعض اساليب الفلاحين (مثلا ص ٦٩ و ٩٩) .

٥ ـ كان يعطي التفاصيل الوافية عن التجارة والاسواق وقيمها مثلا ص ٦٩ و ٨٢ و ٨٥ و ٩٣ و ١٠٨) .

٦ ـ عين بعض المسافات ص ١٨٨ ـ ١٩٠ .

٧ ـ ذكر امثلة عن غش التجار مع نوع السلع (ص ٨٩) .

وفي كل هذا الذى كان الحشائشي يلحظه ويدونه والذى ضمه اخيرا الى كتابه ، كان يسبر مفتح الذهن والعين حريصا على ان لا يفلت منه شيء .

وليس من شك في ان الصفحات التي دونها الحشائشي عن السنوسية والجغبوب من اهم ما جاء في كتابه اذ ان هذه الصفحات تعطينا الكثير الكثير عن هذه الحركة الهامة .

أسلوب الكتاب

ليس من الممكن ان نتابع الحشائشي في تنقله في ليبيا من كتابه . فهو ليس مذكرات يومية او شهرية او اسبوعية . ولعل الرجل اكتفى اصلا بأمور دونها لنفسه . فلما عاد وتحدث عنها واعجب الناس بها ، وطلب منه ان يضع هذا في كتاب ـ لبى طلبهم . فقد قال في ذلك :

« اما بعد . فقد سألني بعض الاحباء والاصدقاء النجباء الالباء ، من أهل العلم والأدب ، ان احرر له كتابة مفيدة فيما يتعلق بتاريخ طرابلس الغرب، علما منه انني احسن صنع هذا المطلوب ، حيث اشتهرت سياحتي في تلك المسالك والدروب ، ومكثي بين تلك القبائل والشعوب ، فبت اقدم رجلا وأؤخر اخرى ، اتردد في الاقدام والاحجام ، لا ادرى ايهما احرى ، ولما وقع الالحاح في المسالة وتواردت علي في هذا الغرض عدة اسئلة، استخرت الله في الموضوع ، وطلبت منه فيض مدده الرباني للاستعانة على المشروع راغبا من ذوى الاحسان واهل الفضل والشان غض الطرف عن الخطأ والنسيان . فاني اول معترف بقصور الباع ، وعدم الاستطاعة والاطلاع » .

وجريا على عادة كثير من الكتاب في ايامه نظم الحشائشي ابياتا فيها الاعتذار وفيها التاريخ . وها نحن اولاء ننقل بعضها لطرفتها :

هذا كتاب صاغه
فكرى فيما أعلم
يا دهر اني سائل
فاجب سؤالي تكرم
فاجابني أرخ لها
هذا كتاب قيم

ومجموع التاريخ هو ١٣٣٠ هـ .

هذا هو محمد بن عثمان الحشائشي ورحلته في ليبيا . ولننقل الآن صفحات من هذه الرحلة ليفيد منها قراء العربي ويستمتعوا بها . وقد اخذناها من طبعة المصراتي ، والارقام في آخر كل مختارة تشير الى صفحات ذلك الكتاب. والحشائشي كان احيانا يتساهل في الامور اللغوية . ولذلك تركه المصراتي على حاله ، وفعلنا نحن الشيء نفسه طبعا .

فصل في أهل بلد طرابلس

اعلم ان غالبهم من البرابرة ، وطباعهم تميل الى البداوة اكثر من الحضارة ، وهم على كمال بشرى في انفسهم ، وغالبهم يميلون الى التجار خصوصا في هاته السنين الأخيرة ، فلهم متجر عظيم مع اهل السودان من برنو وواداي والشاد وغات وغير ذلك . ولا يميلون الى الغرباء في أول الامر ، وقد ذكرت هذا في رحلتي ، لكن تحققت بعد ذلك انهم اذا عاشروا الغريب أكرموه ، واعتبروه كانفسهم ، وصدق الله تحقيقي هذا ببيتين من الشعر وجدتهما ببعض التقارير للفقيه أبن الحسن :

لاهل طرابلس عادة
من البر تنسي الغريب الحميما
حللت بها مكرها ثم لما
أقمت بها أبدلوا الهاء ميما

أما العلوم والمعارف العصرية فلا توجد عندهم بل لا يشمون لها رائحة كما لا توجد عندهم علماء اعلام من فقهاء الاسلام ، على ان هاته المدينة اشتهرت بأكابر من علماء الامة المحمدية كالفقيه

ابي علي الحسن بن موسى بن معمر الهوارى الطرابلسي .... » .

وفي رمضان سنة ١٣١٣ هـ (١٨٩٥ م) دخلت جامع السوق داخل البلد ، وهو جامع بهيج عليه رونق عظيم ، فوجدت كثيرا من أعيان الترك من ضباط وغيرهم كل منهم جالس على ركبتيه بخشوع وتؤدة ووقار يسمعون في كلام رب العالمين من مجود عالم بالتلاوة مصرى له صوت حسن كأنه من مزامير آل داود ..

وفي مدة اقامتي بهاته المدينة رأيت أوباش البلد لهم مخالطة مع الجنس الطلياني وغالبهم يتكلمون معه باللغة الطليانية . وأكثر الاوروبيين طليان .

والبلد القديم بناؤه على الشكل العربي المعروف عندنا بتونس الا أماكن الافرنج فانها على الشكل الاورباوى والبلد الجديد المعروف بالمنشية على الشكل الجيد مثل (تونس) . أما هواء البلد فهو معتدل ليس برديء ، وتوجد به الحمى في زمن الصيف .

أما لحوم البلد وفواكهها وغلاتها فجميعها طيبة. وفيها من كل ما خلق الله لعباده من أصناف النعم بثمن متهاود ويعظم فيها الدلاع (البطيخ الاخضر) الى أمر عظيم بحيث ان الجمل لا يمكنـه حمل دلاعتين الا بمشقة . وهو في غاية الحلاوة مع لذاذة الطعم .

ويأتيها من أوربا غالب السلع التي تأتي الى بلد تونس . ويخرج منها القمح والشعير والبقر والغنم والصوف والتمر وبعض الغلال كالبردقان والليم الحامض والحلو والفلفل الاحمر الشايح والحنا وسلع السودان كالجلد المسمى بالرقعة وريش النعام وناب الفيل وغير ذلك . وهاتـه السلع الخارجة ليس عليها ضرائب دولية الا شيء قليل وجميع ما يأتيها من السلع برا مع القوافل السودانية وغيرها لا يؤدى شيء من الضرائب .

وغالب تجارها من أهل البلد وبعض من المالطيين واليهود ، ولا يوجد فيها بانكه ماليـة في وقت حلولي بها ولا طرق من الحديد ولا معامل اوربية نارية ولا قهاوى منتظمة على الشكل الاوربي . وهي لا زالـت بعيدة عن التنظيمات الاوربيـة والتحسنات .

الفلاحة

أما الفلاحة في هذا البلد فتنقسم على قسمين : القسم الاول اصحاب البساتين الكبيرة والاراضي المجاورة الى البلد يعني أحواز طرابلس واصحاب الآبار والمياه فان هؤلاء يتقنون الفلاحة ويخدمون الارض جيدا ، وأما العرب والعروش البعيدة عن البلد وهم القسم الثاني فليسوا باصحاب حزم وكد لا يخدمون الفلاحة على أصلها مع ان اراضيهم جيدة في غاية الخصب لكن يميلون الى المتاجر اكثر مما يميلون للفلاحة ، على عكس أهل بني غازي كما ستعرف (ان شاءالله) في هذا التاريخ :

ومرسى البلد ليس بمرسى صناعي بل تقف فيه السفن قريبة من البر ، وان اشتد البحر يصعب النزول من السفن على الركاب . ولما كنت هناك وجدت بمرساها مدرعة واحدة للعثمانيين وبابورين للبوسطة أحدهما فرنساوى والآخر طلياني ، وكان الطلياني متوجها الى تونس وهو الذى حملني الى مسقط رأسي :

تونس تؤنس الغـريب فحق
ان أقـول لاهلهــا يا كــرام

حكام المدينة

أما أحكام هاته المدينة (أي طرابلس) فهي جارية على مقتضى قانون المجلة التركية على مذهب الامام أبي حنيفة النعمان رضي الله عنه وأرضاه ، وفي بلدانها الكبار نجد حاكما سياسيا هو المتصرف وقاضيا شرعيا يأتي في الغالب من الاستانة .

قد عرفت آنفا ان أمراء الترك وحكامها يتكلمون باللغة الفرنسية جيدا الا النزر القليل .

اعلم ان لمدينة طرابلس اعمال كبار ثلاثة أولها فزان وهو في الحقيقة أكبر الاعمال مسـاحة ، والثاني عمل سرت ، وهو أخصب الاعمال وأجودها تربة ، والثالث عمل الجبل ، وبلغني في هاته المدة ان الاعمال صارت أكثر من الثلاثة ولكن مبنى كلامي على ما كتبته في حق طرابلس سـنة ١٣١٣ هـ (١٨٩٥ م) سواء كان في هذا الموضوع او في غيره فلتعرفه حتى لا تنسب الي الوهما اذا عرفت حالها سنة ١٣٣٠ هـ (١٩١١ م) .

ولكل عمل حاكم سياسي يسمونه متصرفا نظره ومتصرفيته على ذلك العمل . وكل عمل به عدة بلدان وفي كل بلد حاكم يسمونه القائم مقام من غير رتبة عسكرية ونظره تحت متصرف ذلك العمل . ونظر المتصرف للباشا العام حاكم ولاية طرابلس ،

والباشا نظره لوزير الخارجية بالدولة العثمانية . (ص ٦٦ ـ ٧٣) .

اقليم فزان

يحتوى هذا الصقع على ثلاثمائة قرية بناؤها من الطوب اذا أصابها الغيث الوابل تنهدم سريعا ، وماؤهم من الآبار والعيون وبكل قرية من النخيل ما لم يعلم علمه الا الله تعالى ، اذا لم يحص عدده ، والصحراء والتوارك يمتارون منه ، وغالب أراضيه ليست بصالحة للفلاحة ولا وجود للبقر بأراضيهم الا بقر الوحش البرى ، وأغلبها ان لم نقل كلها رمال وجبال من الرمال رحالة وجبال من الحجر لونها أكحل لا نبات فيها. وتبلغ الحرارة هناك الى درجة عالية ويقع عندهم الجمود في المياه فكثرته من أكتوبر الى فبراير ان هبت عليهم الرياح الغربية . والرقيق في بلدانهم كثير يباع ويشترى من غير اشهار . ويمكن ان الثلاثة أيام او اربعة تمشي في اراضي لونها كالقار أو أشد سودا . وجبالها وأراضيها صلدة لا نبات بها ، وأياما تمشي في رمال متصلة بعضها ببعض ، وبها جبال شامخة من الرمل رحالة ، وأياما في بساط متسع وتنايف ممتد الاطراف ومجاهل تمكث فيها القوافل العديدة وأهلها لا خدمة لهم الا حركة النخيل ، وفيهم التجار الذين يذهبون الى السودان وبلدانه ، وكثير منهم يقصد بنغازى وطرابلس وتونس لاجل الخدمة والتمعش ، ولهم محبة عظيمة في خوض تونس على غيرها لكثرة أرباحهم بها ، ومن مكث مدة في تونس ثم رجع الى بلده يحسب غنيا في عرفهم ويتفاخرون بالذهاب الى تونس .

وطباع أهلها التأني والرزانة وغالبهم على طريقة الشيخ السنوسي الا القليل ، ولا توجد بلدة من بلدانهم المشهورة لم تكن به زاوية من زوايا السنوسيين .

بلدانهم المشهورة

أما بلدانهم الكبيرة المشهورة فأولها مرزق : هي قاعدة فزان الكبيرة التي بها المتصرف والعسكر ، تبعد على طرابلس بمسير ثلاثين يوما تقريبا للقوافل ، ولتعلم السلع الداخلة لطرابس : القماش الأبيض بانواع كالحمودى والعنبر فني وغيره . القماش المصبوغ من المالطي وغيره انواع السكر خصوصا السكر القالب . التاى بأنواعه الابيض والاسود . اللفة بانواعها . الملف بأنواعه . الجرود يعني الحوالي بانواعها وغالبها تأتيهم من جربة والجريد من عمل تونس . البرانس . الكساوى المحروجة والجبايب . أنواع الشاشية التونسية . القرمسود بأنواعه . جميع الروائح الطيبة من أعطار ومسك . أبزرة بانواعها . انواع الاسلحة . الحلي من المجوهرات وأنواع الساعات ومن الذهب والفضة والعقيق بأصنافه وألوانه ومن المرجان . محارم من الخيط والقطن والحرير . أنواع الاقمشة المديانية وغيرها . قوالب صابون اوروباوى ممسك . الارز . أنواع الكولونية من جميع الروائح الطيبة . أنواع اقمشة بالفضة . وغير ذلك مما يطول بنا ذكره تفصيلا . جميع هاته السلع تاتي الى طرابلس من أوربا وتونس والاسكندرية ومنها يرفعونها التجار الى غات وغدامس وفزان والاقطار السودانية يذهبون بها تجارا من أهل طرابلس وغدامس فتباع بأثمان باهظة .

السلع الخارجة من طرابلس الى اوربا : ريش النعام بانواعه . ناب الفيل . الزبد . طيور من النعام . وأنواع الببغاء . وكل ما يأتيها من السلع السودانية . ويخرج منها القمح والشعير والسمن. والزيت . والفحم والطرونة . والملح . والبقر . والغنم . والماعز . والدجاج . والبيض والتمر . والفلفل . والحنا والفول والعدس والحمص والزيت . ويباع بثمن عال في وطن فزان والعسل وغير ذلك . (ص ١٩٢ ـ ١٩٣) .

مدينة مسراطة

هذا بلد عظيم من أعمال طرابلس يقال له مسراطة بينه وبين البحر اثنى عشر كيلومتر . وهواؤه جيد للغاية وماؤه طيب وأراضية خصبة ، به النخل الكثير فلكل واحد من أهل البلاد بستان يخصه ، وهم يخدمون الارض حتى يصيروها كالحرير الناعم على نمط أهل صفاقس وضد أهل بنغازى ، وفيها من جميع الغلال والفواكه ما لم يعلم علمه الا الله لأن المياه بها كثيرة جدا ، وأهلها عالمون بالفلاحة وخدمتها يخرج منها القمح والشعير لاوربا بكثرة في سنين الخصب وكذلك الزيت لان زيتونها على غاية من حسن الاتقان وهو كثير عندهم

متولعون به ويخرج منها السمن الطيب بانواعه . وهو بلد كبير بناؤه متفرق عن بعضه بعضا في الغالب كبساتين صفاقس وارضها أجود من أرض صفاقس وأخصب وأكثر مياها .

أما أهلها ففي غاية الحسن والجمال والرفاهية وحسن المعيشة ورخيصة الاسعار مثل بنغازي وأرخص ، وكلهم تجار أصحاب جد واجتهاد .

وبها ثلاثة اسواق ، سوق الاحد وهو السوق الكبير تاتي لهم العرب من جميع انحاء طرابلس من كل حدب ينسلون على مسافة خمسة ايام أو أكثر فتتجمع به ألوف من العرب خصوصا في فصل الربيع كمروش . ورفلة . والسعادة . وطرهونة . وعرب ابن وليد . والجبل. وأهل طرابلس نفسها. وأهل بلد زليطن . والخمس . والساحل وغير ذلك ، وتعظم أسواقها . ويباع بهاته الاسواق جميع انواع الحيوانات من البغال والخيل والحمير والجمال والبقر والغنم والمعز . وترى الوفا من هاته الاصناف . ويباع بها السمن الجيد الصافي عديم النظير والعسل المصفى والزيت الحلو الطيب والدجاج والبيض ، ويخرج منه الى طرابلس ألوف من الصناديق اللوح، وبه أنواع الطيور من الحمام والاوز والجرمان يعني البط . بثمن زهيد ، ويجلب لسوقها من انواع الصيد البرى ما لم يعلم علمه الا الله كلحم الغزال وبقر الوحش والارانب والحجل والقطا والدرج والحمام البرى وغير ذلك . والتجارة رابحة بهذا البلد ويختص بصناعة المرقوم الجيد المختص بهذا البلد مثل اختصاص القيروان بصناعة الزرابي . ومثل السوق المذكور سوق الخميس وسوق الثلاثاء الا ان سوق الاحد يشتمل أكثر منهما .

وبعد صلاة الجمعة من كل أسبوع تخرج قافلة كبيرة في مقدار مائتي جمل وأكثر ذاهبةالىطرابلس فتبلغ اليها صبيحة يوم الثلاثاء لكنها تسير ليلا ونهارا سيرا مجدا بحيث يمنع النوم الا وقت الاستراحة القليلة وهي مقدار الثلاث سوايع في الليل ومثلها بالنهار .

وغالب تجار مسراطة من اليهود وهم كثيرون في غاية الرفاهية يتمتعون بحرية تامة في كسبهم وارتزاقهم ودياناتهم . ولا توجد في البلد قناصل للدول الاوروبية . وبها كثير من اليهود التونسيين والجزائريين ولم يوجد بها من الجراية الا نفرا واحدا ولم يوجد بها أحد من الصفاقسيين .

ويوجد بالبلد خمسة وعشرون عسكريا ومعهم ضابط من رتبة يوزباشي وحاكم تركي الا ان عسة البلد في مدة اقامتي فيه غير كافية للامن . ولما كنت هناك عمدت عدة من الاشقياء الى جامعاليهود ندخلته ليلا واخذت منه جميع الفضة التي كانت بها أسفار التوراة . وقناديل من الفضة وصندوقا به عشرة آلاف قرش كانت موضوعة هناك لتوزع على الفقراء والمساكين منهم ثم مزقت الكتب التي ذكرت . ولما بلغ الامر الحكومة خرجت العساكر للبحث والقي القبض على انفار متهمين بهذا الفعل وبطشت الحكومة بالجاني البطش العظيم بالغرامة والعقاب الشديد .

ويوجد بمسراطة رجل من رعايا اليونان لكنه شهر على نفسه انه من رعايا الانكليز يتجر هذا الرجل في القمح والشعير وله دكان في غاية النظافة يبيع فيه أنواع المملحات والمقرونة والجبن . ويتعاطى رهن الرباع والعقار بفايظ معلوم. ورأيت الكثير من أعيان البلد يجلس بدكانه حتى حاكم البلد نفسه . وسكة نقودها مثل طرابلس وبنغازي . (ص ١٠١ – ١٠٤) .

طبخ الشاى

وان اردته طبخته يا صاح
في الليل اذ شئت او الصباح
فخذ من الماء القراح الجيد
وصبه في السموار فورا واقد
واغليه غليا جيدا على الولا
كما اتى في قول بعض الفضلا
لا تفترر بصوته اذا غلا
حتى ترى البخار في الجو علا
ونظف البراد ان فيه درن
وضع من الشاهي فيه واغسلن
واسكب عليه الماء ان كان غلا
واجعل له السكر حتى حلا
وغطه وضع عليه منشفة
واصبر عليه ساعة واستفرفه

(ص ١٨٠ – ١٨١) .

نقولا زيادة